

منهج الشيخ أحمد بمب امباكي (ت: 1346هـ/1927م)

في تقرير العقيدة الأشعرية

الدكتور شيخنا خديم امباكي مرتضى فاضل

قسم الدراسات الإسلامية، كلية الدراسات الإسلامية والعربية

جامعة الشيخ أحمد الخديم، طوبى، السنغال

ملخص

علم التوحيد يعد من أشرف العلوم بل هو أجلها وأفضلها على الإطلاق؛ لأن أفضلية العلم تعرف بقدر المعلوم وجلالته وعظمته، ولا يوجد شيء أجل وأعظم من البارئ سبحانه وتعالى.

ونظرا لأهمية هذا العلم وشرفه، وحاجة الناس إليه، فقد أفرد العلماء بمصنفات مستقلة تبين أهميته ومكانته، ومن بين هؤلاء العلماء، العلامة السنغالي المبرز الشيخ أحمد بمب البكي — رحمه الله تعالى — المشهور بالشيخ الخديم مؤسس «الزاوية المريدية» بالسنغال الذي بذل نفسه ونفيسه لغرس العقيدة الإسلامية الصحيحة في نفوس المسلمين، تصنيفا وتأليفا وإقراء ونشرا، باعتبارها الأصل الأصيل والركن الركين لهذا الدين.

أبين في هذا البحث منهج الشيخ أحمد بمب في العقيدة من خلال كتاباته، ومدى تطابق منهجه مع منهج أهل السنة والجماعة في بعض المسائل العقدية التي كثر فيها الجدل والقييل والقال.

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه أجمعين،
ومن تبعهم بإيمان إلى يوم الدين. وبعد:

فإن علم التوحيد يعد من أشرف العلوم بل هو أجلها وأفضلها على الإطلاق؛ لأن
أفضلية العلم تعرف بقدر المعلوم وجلالته وعظمته، ولا يوجد شيء أجل وأعظم من
الباري سبحانه وتعالى.

وقال ابن القيم -رحمه الله-: «ولما كان العلم للعمل قرينا وشافعا وشرفه لشرف
معلومه تابعا كان أشرف العلوم على الإطلاق علم التوحيد...»⁽¹⁾. ويضيف ابن أبي
العز الحنفي قائلا: «علم أصول الدين أشرف العلوم، إذ شرف العلم بشرف المعلوم،
وهو الفقه الأكبر بالنسبة إلى فقه الفروع، ولهذا سمي الإمام أبو حنيفة -رحمه الله- ما
قاله وجمعه في أوراق من أصول الدين (الفقه الأكبر)، وحاجة عباد الله إليه فوق كل
حاجة، وضرورتهم إليه فوق كل ضرورة؛ لأنه لا حياة للقلوب ولا نعيم ولا طمأنينة إلا
بأن تعرف ربها ومعبودها وفاطرها بأسمائه وصفاته وأفعاله، ويكون مع ذلك كله أحب
إليها مما سواه»⁽²⁾.

ويقول الشيخ الخديم السنغالي -رحمه الله-:

وَأَفْضَلُ الْعُلُومِ بِالْإِطْلَاقِ تَوْحِيدُ رَبِّنَا عَلَى اتِّفَاقِ⁽³⁾
وَبَعْدُ فَالتَّوْحِيدُ رَأْسُ الْمَالِ وَرُوحُ دِينِ اللَّهِ ذِي الْجَلَالِ⁽⁴⁾

(1) إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن قيم الجوزية، ت: محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت،
ط1، 1411هـ / 1991م، (4/1).

(2) مقدمة شرحه على العقيدة الطحاوية، ت: أحمد محمد شاكر، ص: 5.

(3) مسالك الجنان للشيخ الخديم، دراسة وتحقيق: دائرة روض الرياحين، طوبى - السنغال، مطبعة المعارف الجديدة
بالرباط - المغرب، الطبعة الأولى، 1436هـ/2014م، (ص: 44).

(4) جذبة الصغار للشيخ الخديم، ضمن ديوان العلوم الدينية، للشيخ الخديم، جمع وعناية الرابطة الخدمية للباحثين
والدارسين، دار الأمان للنشر والتوزيع، المغرب، ط2، 1441هـ/2020م، (ص: 161).

لَكِنَّمَا التَّوْحِيدُ خَيْرُ الدُّخْرِ لِلشَّخْصِ فِي الْقَبْرِ وَيَوْمَ النَّشْرِ
لِأَنَّهُ عَنْ غَيْرِهِ يُعْنِي وَلَا يَدُونُهُ يُفِيدُ عِلْمٌ مُسَجَّلًا⁽⁵⁾

ونظرا لأهمية هذا العلم وشرفه، وحاجة الناس إليه، فقد أفرد العلماء بمصنفات مستقلة تبين أهميته ومكانته، ومن بين هؤلاء العلماء، العلامة السنغاليّ المبرز الشيخ أحمد بمب البكي - رحمه الله تعالى - المشهور بالشيخ الخديم مؤسس «الزاوية المريدية» بالسنغال الذي بذل نفسه ونفيسه لغرس العقيدة الإسلامية الصحيحة في نفوس المسلمين، تصنيفا وتأليفا وإقراءً ونشرًا، باعتبارها الأصل الأصيل والركن الركين لهذا الدين. وعليه، فإن هذا البحث يتناول منهج الشيخ الخديم في تقرير العقيدة الأشعرية ليكون مشاركتي في مجلة الدراسات العربية والإسلامية لجامعة شيخ أنت جوب بدار/ السنغال، العدد الثاني/ السنة الثانية 2023م بعنوان:

منهج الشيخ الخديم في تقرير العقيدة الأشعرية

أود أن أبين في هذا البحث منهج الشيخ أحمد بمب في العقيدة من خلال كتاباته، ومدى تطابق منهجه مع منهج أهل السنة والجماعة في بعض المسائل العقدية التي كثر فيها الجدل والقليل والقال. ونذكر هنا بعض أمثلة لذلك باختصار شديد.

1- مسألة زيادة الإيمان ونقصانه:

فالآيات القرآنية قد نطقت في مواضع كثيرة من الكتاب العزيز بزيادة الإيمان، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَلَّيْت عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: 2]، وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزادتهم إيمانًا﴾ [التوبة: 124]، وغير ذلك. وهذه الآيات تدل أيضاً

(5) مواهب القدوس للشيخ الخديم، ضمن ديوان العلوم الدينية، للشيخ الخديم، (ص: 62).

على النقصان؛ لأن ما زاد كان قبل الزيادة ناقصاً، وكل ما كان قابلاً للزيادة فهو قابل للنقصان.

ووردت في السنة أحاديث صحيحة تدل على زيادة الإيمان ونقصانه، ومن ذلك حديث أقلّ الإيمان المنجي في الآخرة في قول النبي ﷺ: «أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان..»⁽⁶⁾. قال ابن حجر في «الفتح»: «فالإيمان عند السلف هو اعتقاد بالقلب ونطق باللسان وعمل بالأركان، وأرادوا بذلك أن الأعمال شرط في كماله، ومن هنا نشأ لهم القول بالزيادة والنقص. والمرجئة قالوا: هو اعتقاد ونطق فقط. والكرامية قالوا: هو نطق فقط. والمعتزلة قالوا: هو العمل والنطق والاعتقاد، والفارق بينهم وبين السلف أنهم جعلوا الأعمال شرطاً في صحته، والسلف جعلوها شرطاً في كماله»⁽⁷⁾. فأهل السنة مُتَّفِقُونَ على أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

فقد قرّر الشيخ الخديم رضي الله عنه مذهب أهل السنة في هذه المسألة، فبيّن في أكثر من موضع أن الإيمان اعتقاد وقول وعمل، وأنه يزيد وينقص، ومن ذلك قوله:

وَوَجِبَ الْإِيمَانُ أَنَّهُ⁽⁸⁾ عَلَى ثَلَاثَةِ الْأَقْسَامِ عِنْدَ مَنْ عَلَا
قَوْلٌ وَإِخْلَاصٌ وَثَالِثٌ عَمَلٌ فَمَنْ حَوَى جَمِيعَهَا نَالَ الْأَمْلَ
يَزْدَادُ يَنْقُصُ بِزَيْدِ الْعَمَلِ وَنَقْصِهِ فَرُدُّ مَعَ التَّكْمُلِ
بِالْقَوْلِ وَالنِّيَّةِ فِي خَيْرِ السُّنَنِ ثَرِي سَعَادَةً تُلَازِمُ الْمِنَّةَ⁽⁹⁾

⁽⁶⁾ البخاري: الصحيح: كتاب: الإيمان، باب: تفاضل أهل الإيمان، ح: 22 (1/ 91) مع فتح الباري لابن حجر العسقلاني، لابن حجر العسقلاني، الناشر: دار المعرفة - بيروت.

⁽⁷⁾ فتح الباري، (1/ 46).

⁽⁸⁾ يقصد الإيمان.

⁽⁹⁾ المغني في معاني فيض الغني المغني للباحث شيخنا خديم امباكي، ط 1، 1439هـ/2018م، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، (ص: 140).

2- مسألة خلق الأفعال:

وهذه المسألة من المسائل التي أثارت نقاشا كبيرا وجدالا واسعا بين الفرق الكلامية من قدرية، ومعتزلة، وجبرية، وأشعرية قديما وحديثا، وكثر فيها القيل والقال، ولكن الذي عليه الجمهور أن الله تعالى هو الخالق لكل شيء، وهو رب العباد وخالقهم وخالق أعمالهم، كما قال سبحانه: ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد:16]، ولفظ (كل) من ألفاظ العموم، وقوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات:96].

قال العلامة محمد اليدالي الديباني الشنقيطي في تفسير هذه الآية: «وهذه الآية عندهم قاعدة في خلق الله تعالى أفعال العباد، وهو مذهب أهل السنة، خلافا للمعتزلة. قالوا: إن الله يخلق العبد، والعبد يخلق أفعاله»⁽¹⁰⁾. «فإن الله تعالى هو الذي يخلق أفعال الإنسان عند ما يعزم الإنسان على أن يفعل ذلك الفعل، غير أن أفعال الإنسان تُعتبر من كسبه، وهي منسوبة إليه مجازا، ونسبتها إلى الله نسبة خلق وإيجاد، والإنسان على أساس سعيه واختياره يجازى على أفعاله جزاء وفاقا»⁽¹¹⁾. خلافا للجبرية الذين يقولون بأن الإنسان مُجَبَّرٌ على أفعاله، والقدرية القائلين بأن الله لا يخلق أفعال الإنسان الاختيارية، وإنما يخلقها الإنسان.

والشيخ الحديم - رحمه الله - قد كشف الستار عن هذه المسألة في الأبيات التالية:

وَأَجْعَلَ مِنَ الْمُحَالِ خَلْقَ شَيْئًا بِنَفْسِهِ تَفْزُ بِخَيْرِهِ
وَأَجْعَلَ مِنَ الْوَاجِبِ كَوْنَ اللَّهِ رَبِّ الْعِبَادِ لَا تَمَلْ لِإِلَهِ

(10) الذهب الإبريز في تفسير كتاب الله العزيز، محمد سعيد اليدالي الديباني، تحقيق وتصحيح: الراجل بن أحمد سالم اليدالي، ط1، 2014، (6/182).

(11) فتح المجيد على نظم عبد الله بن الحاج أحماء الله الشنقيطي لرسالة بن أبي زيد القيرواني، للمؤلف الأمانة وُلد إبراهيم، ط1، 1423هـ 2002م، مطبعة المنار، نواكشوط. (ص:80).

خَلَقَهُمْ وَخَلَقَ الْأَعْمَالَ وَقَدَّرَ الْأَجَالَ وَالْأَمَالَ⁽¹²⁾
وقال أيضا:

لَهُ الْبَرَايَا لَهُ أَفْعَالُهُمْ وَلَهُ جَلَّ الْوُجُودُ الَّذِي قَدْ زَانَهُ الْقَدَمُ⁽¹³⁾

3- مسألة الأسماء والصفات:

فإذا كانت الجهمية قد نفوا الأسماء وما دلَّت عليه من معانٍ وأحكام، وأثبتها المعتزلة دون معانيها، فقالوا: عليم بلا علم، سميع بلا سمع، متكلم بلا كلام... إلخ، وجعل المشبهة صفات الله تعالى كصفات الحوادث، فإن أهل السنة والجماعة يُثبتون أسماء الله الحسنى، وما دلَّت عليه من الصفات العليا.

وأما صفاته سبحانه وتعالى فقد تواترت الأخبار فيها عن النبي صلى الله عليه وسلم مُوافقةً للقرآن الكريم. «والذي عليه أهل السنة وأئمة الفقه والأثر في هذه المسألة وما أشبهها، الإيمان بما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم فيها والتصديق بذلك وترك التحديد والكيفية في شيء منه»⁽¹⁴⁾.

ورأي الشيخ الخديم - رحمه الله - في تقرير الأسماء والصفات يوافق مذهب أهل السنة والجماعة في إثبات الأسماء لله تعالى وإثبات ما دلَّت عليه من معانٍ وأحكام. حيث قال:

وَلَمْ تَزَلْ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَفُزْتُ فِيهَا بِالْمَقَرِّ الْأَسْنَى
وَلَمْ تَزَلْ لَهُ صِفَاتُهُ الْعُلَى مِثْلَ أَسْمَائِهِ تَعَالَى وَعَلَا

⁽¹²⁾ المغني في معاني فيض الغني المغني، مرجع سابق، (ص: 95).

⁽¹³⁾ من قصيدة للشيخ الخديم مطلعها: «بشرى لنا قد أتانا الجود والكرم».

⁽¹⁴⁾ التمهيد لابن عبد البر النمري، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري، الناشر: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب، عام النشر: 1387 هـ (7/ 147).

أَسْمَاؤُهُ قَدِيمَةٌ لَا حَادِثَةَ وَلِي قَادَتِ الْمُنَى فِي الْحَادِثَةِ (15)

وقوله:

لَا يَبْلُغُ الْوَاصِفُ وَصْفًا قَدْ حَوَى بَاقِي حَفِيطٌ قَدْ يَجُودُ بِالْحَيَا (16)

وقوله:

سُبْحَانَ مَنْ أَعْجَزَ خَلْقًا دَرْكُهُ وَشُكْرُهُ عَزَّ وَجَلَّ مُلْكُهُ
فَكُلُّ مَا يَخْطُرُ بِالْبَالِ أَبَدٌ فَبِخِلَافِ ذَاكَ رَبُّنَا الْأَعْدُ (17)

4- مسألة خلق القرآن:

وقد اختلف العلماء والمتكلمون خصوصا في تفاصيل هذه المسألة اختلافا لا يسع المقام لسرد تلك التفاصيل هنا. وقد لخصها ابن حجر في الفتح في قوله: «ومحصل ما نقل عن أهل الكلام في هذه المسألة خمسة أقوال: الأول: قول المعتزلة إنه مخلوق. والثاني: قول الكلابية إنه قديم قائم بذات الرب ليس بحروف، ولا أصوات، والموجود بين الناس عبارة عنه لا عينه. والثالث: قول السالمية إنه حروف، وأصوات قديمة الأعين، وهو عين هذه الحروف المكتوبة والأصوات المسموعة. والرابع: قول الكرامية إنه محدث لا مخلوق (...) والخامس: أنه كلام الله غير مخلوق، إنه لم يزل يتكلم إذا شاء، نص على ذلك أحمد في كتاب الرد على الجهمية وافترق أصحابه فرقتين، منهم من قال هو لازم لذاته والحروف والأصوات مقترنة لا متعاقبة ويسمع كلامه من شاء، وأكثرهم قالوا إنه متكلم بما شاء متى شاء، وأنه نادى موسى عليه السلام حين كلمه ولم يكن ناداه من قبل.

(15) المغني في معاني فيض الغني المغني، (ص: 79).

(16) المرجع السابق، (ص: 60).

(17) مواهب القدوس، ضمن ديوان العلوم الدينية، (ص: 63).

والذي استقر عليه قول الأشعرية أن القرآن كلام الله غير مخلوق، مكتوب في المصاحف محفوظ في الصدور، مقروء باللسنة. قال الله تعالى: ﴿فَأَجْرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾. وفي الحديث المتفق عليه عن ابن عمر كما تقدم في الجهاد: «لا تسافروا بالقرآن إلى أرض العدو كراهية أن يناله العدو»، وليس المراد ما في الصدور، بل ما في الصحف. وأجمع السلف على أن الذي بين الدفتين كلام الله (...). ومن شدة اللبس في هذه المسألة كثر نهي السلف عن الخوض فيها واكتفوا باعتقاد أن القرآن كلام الله غير مخلوق ولم يزيدوا على ذلك شيئا وهو أسلم الأقوال»⁽¹⁸⁾.

وقد قرر الشيخ الخديم رضي الله عنه مذهب أهل السنة في المسألة في بيتين، فقال:

وَأَنَّ قُرْآنَ الَّذِي يُذَرِّي الْغُيُوبَ كَلَامَ هَادٍ قَدْ يُزَحْنِحُ الْغُيُوبَ
لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ وَلَيْسَ بِصِفَةٍ خَلْقِي، وَجَادَ لِي بِالْمُتَّصِفَةِ⁽¹⁹⁾

5- مسألة رؤية الله تعالى:

والمعتزلة ينفون جواز رؤية الله تعالى مطلقا، في حين أن المشبهة لا ينفون جواز رؤيته تعالى بل يُكَيِّفُونَ الرؤية، ولكن أهل السنة والجماعة يخالفونهم ويشبّون جواز الرؤية بلا تكييف ويستدلون بالعقل والنقل. قال أبو الحسن الأشعري: «وندين بأن الله يرى في الآخرة بالأبصار كما يرى القمر ليلة البدر، يراه المؤمنون كما جاءت الروايات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ونقول: إن الكافرين محبوبون عنه إذا رآه المؤمنون في الجنة كما قال سبحانه: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: 15]، وأن موسى

⁽¹⁸⁾ فتح الباري، (13/ 493-494)، مرجع سابق.

⁽¹⁹⁾ المغني، (ص: 84).

عليه السلام سأل الله عز وجل الرؤية في الدنيا، وأن الله تعالى تجلّى للجبل فجعله دكا، فأعلم بذلك موسى أنه لا يراه في الدنيا»⁽²⁰⁾.

ويضيف أبو بكر الباقلائي في «الإنصاف» قائلا: «ويجب أن يعلم: أن الرؤية جائزة عليه سبحانه وتعالى، من حيث العقل، مقطوع بها للمؤمنين في الآخرة؛ تشريفاً لهم وتفضلاً، لوعده الله تعالى لهم بذلك. والدليل على جوازها من حيث العقل: سؤال موسى عليه السلام، حيث قال: «رب أرني أنظر إليك». ويستحيل أن يسأل نبي من أنبياء الله تعالى مع جلالة قدره وعلو مكانه ما لا يجوز عليه سبحانه، ولولا أنه اعتقد جوازها لما سألها، ولأنه تعالى علقها باستقرار الجبل، ومن الجائز استقرار الجبل، ويدل عليه أيضاً: أنه موجود، والموجود يصح أن يرى. وأما الدليل على ثبوتها من طريق الكتاب: قوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب: 44]، واللقاء إذا قرن بالتحية لا يقتضي إلا الرؤية»⁽²¹⁾.

وقال الشيخ الخديم رضي الله عنه مُقَرِّراً مذهب أهل السنة في المسألة:

وَوَجِبَ اعْتِقَادُنَا أَنَّ الْجَمِيلَ خَلَقَ جَنَّةً لِفَاعِلِي جَمِيلِ
أَعْدَهَا دَارَ خُلُودٍ أَبَدًا لِلْمُؤْمِنِينَ لَا يَرَوْنَ كَبَدًا
وَأَتَمُّ أَكْرَمَهُمْ بِالنَّظَرِ لَوَجْهِهِ الْكَرِيمِ فِيهَا فَانْظُرِ⁽²²⁾

⁽²⁰⁾ الإبانة، أبو الحسن الأشعري، تح: عباس صباغ، دار النفائس، الطبعة الأولى: 1414هـ—1994م، (ص: 38).

⁽²¹⁾ الإنصاف، أبو بكر الباقلائي، تقديم محمد زاهد بن الحسن الكوثري، عناية عزت العطار الحسيني، مكتب نشر الثقافة الإسلامية، طبعة: 1369هـ/1950م، (ص: 42).

⁽²²⁾ المغني، (ص: 123).

6- وجوب الصلاح والأصلح:

والعدل أصل من الأصول الخمسة التي بنى عليها المعتزلة مذهبهم، ويندرج تحت هذا الأصل ما يُسمُّون بالصلاح والأصلح. «يريد المعتزلة بالصلاح والأصلح أنه يجب على الله- تعالى الله عن قولهم- رعاية مصالح العباد وفعلها لهم، واختلفوا في وجوب الأصلح لهم، ويقصدون بالأصلح: الأفضل في العاجلة والعاقبة»⁽²³⁾. ويقول الشهرستاني- في معرض بيان رأيهم في المسألة-: «واتفقوا على أن الله تعالى لا يفعل إلا الصلاح والخير، ويجب من حيث الحكمة رعاية مصالح العباد، وأما الأصلح... ففي وجوبه خلاف عندهم»⁽²⁴⁾.

وأهل السنة والجماعة يخالفونهم في هذه المسألة؛ لأن «الإيجاب عليه سبحانه وتعالى والتحريم بالقياس على خلقه فهذا قول القدريّة، وهو قول مبتدع، مخالف لصحيح المنقول، وصريح المعقول. وأهل السنة اتفقوا على أنه سبحانه خالق كل شيء وربّه ومليكه، وأن ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأن العباد لا يوجبون عليه شيئاً...»⁽²⁵⁾.

وقد بيّن الشيخ الخديم- رحمه الله- في أكثر من موضع بأن الله تعالى لا يجب عليه شيء، وأن فعله يدور بين الفضل والعدل؛ خلافاً للمعتزلة القائلين بوجوب الصلاح والأصلح وبوجوب إثابة المطيع ومعاقبة العاصي. وقد ردّ على المعتزلة في هذه المسألة في قوله:

وَرَدُّ رَأْيِ مَنْ عَلَيْهِ أُوجِبَ صَالِحًا أَوْ أَصْلَحَ تُرْزَقُ أَدَبًا

⁽²³⁾ انظر تفصيل المسألة في كتاب (المعتزلة وأصولهم الخمسة وموقف أهل السنة منها) للدكتور عواد المعتق، مكتبة الرشد، الرياض، ط2، 1413هـ/1995، (ص: 97. ص: 202).

⁽²⁴⁾ الملل والنحل للشهرستاني، ت: محمد سيد كيلاي، دار المعرفة، بيروت، 1404هـ، (44/1).

⁽²⁵⁾ اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية، تحقيق: محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ط2، 1369هـ، (ص: 409).

فَكُلُّ مَا فَعَلَهُ الْجَلِيلُ فَذَاكَ مُطْلَقًا هُوَ الْجَمِيلُ
لِأَنَّ كُلَّ نِعْمَةٍ مِنْهُ أَتَتْ عَلَى عِبَادِهِ فَتَفْضِيلٌ ثَبَتَ
وَكُلُّ نِعْمَةٍ عَرَتْ عَبْدًا أَبَدَ فَإِنَّهَا عَدْلٌ إِلَيْنَا الصَّمَدُ⁽²⁶⁾

وقال أيضا:

وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يَجِبُ عَلَيْهِ شَيْءٌ بَلْ لِفَضْلٍ يَهَبُ⁽²⁷⁾

7- مرتكب الكبيرة:

ومذهب أهل السنة والجماعة أن مات من المسلمين من غير توبة من ذنب ارتكبه، فأمره مُفَوَّضٌ إلى الله، إن شاء عَذَّبَ، وإن شاء عفا له، وإن عَذَّبَهُ فَإِنَّهُ لَا يُجْلَدُ فِي النار، «خلافًا للخوارج حيث قالوا: كل ذنب كبيرة، وكل كبيرة مُحِيطَةٌ للعمل ومرتكبها كافر. وخلافًا للمعتزلة حيث قالوا: كل كبيرة مُحِيطَةٌ للعمل ومرتكبها له منزلة بين منزلتين، لا يسمى مؤمنا ولا كافرا، وإنما يقال له فاسق، وهذا بناء منهم على تحسين العقل وتقبيحه»⁽²⁸⁾. ويقولون أيضا بأن مرتكب الكبيرة مُخَلَّدٌ فِي النار، وخلافًا للمرجئة القائلين بأنه لا يضرّ مع الإيمان معصية.

ومن أدلة أهل السنة قول النبي صلى الله عليه وسلم: «يقول الله عز وجل: ...ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئا، لقيته بمثلها مغفرة»⁽²⁹⁾. قال الإمام ابن رجب: «فمن جاء مع التوحيد بقراب الأرض، وهو ملؤها أو ما يقارب

⁽²⁶⁾ مواهب القدوس، ضمن ديوان العلوم الدينية، (ص: 72-73).

⁽²⁷⁾ نزود الصغار، ضمن ديوان العلوم الدينية، (ص: 513).

⁽²⁸⁾ كفاية الطالب الرباني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني، للعلامة علي بن خلف المصري مع حاشية العدوي، ط: 1، 1407هـ/1987م، مطبعة المدني، مصر. (1/191).

⁽²⁹⁾ صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ب. ت، (4/2068) ح 2687.

خطايا لقيه الله بقراها مغفرة؛ لكن هذا مع مشيئة الله عز وجل، فإن شاء غفر له، وإن شاء أخذه بذنوبه ثم كان عاقبته أن لا يُخلَّد في النار بل يخرج منها ثم يدخل الجنة»⁽³⁰⁾. والسلف مُجمعون على أن المؤمن بالله تعالى وسائر ما دعاه النبي صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان به لا يخرج عنه شيء من المعاصي، ولا يحبط إيمانه إلا الكفر، وأن العصاة من أهل القبلة مأمورون بسائر الشرائع، غير خارجين عن الإيمان بمعاصيهم»⁽³¹⁾.

وقال الشيخ الخديم رضي الله عنه:

وَلَمْ شَيْئَةً يَصِيرُ مَنْ أَيْ تَوْبًا لِمَنْ خَلَقَ أُمًّا وَأَبًا
وَكُلُّ ذَنْبٍ غَيْرُ شِرْكٍ يُغْفَرُ وَالشِّرْكُ لَا يُغْفَرُ لَا يُكْفَرُ
إِلَّا بِتَوْبَةٍ نَصُوحٍ وَهِيَ لَا تَرْكُ عَصِيَانًا دَعِ التَّحِيُّلَا
وَمَنْ حَوَى شَيْئًا مِنَ الْإِيمَانِ بِالْأَكْرَمِ الْمُكْرَمِ الرَّحْمَنِ
فَلَا يَكُونُ خَالِدًا فِي النَّارِ فَجَزْؤُهُ يُخْرِجُهُ مِنَ نَارِ
وَكَامِلُ الْإِيمَانِ لَيْسَ يَدْخُلُ فِي نَارٍ مِنْ خَيْرِ الْجَنَانِ يُدْخَلُ

8- التكفير:

ومسألة التكفير من المسائل الخطيرة في الإسلام؛ ولذلك ينبغي للمسلم ألا يتسرع إلى تكفير أحد من إخوانه المسلمين؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «مَنْ قَالَ لِأَخِيهِ: يَا كَافِرُ؛ فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا»⁽³²⁾. وذكر الإمام عبد القاهر البغدادي أن أهل السنة والجماعة «لا يُكْفَرُ بعضهم بعضًا، وليس بينهم خلاف يوجب التبرُّي والتكفير،

⁽³⁰⁾ جامع العلوم والحكم، ط1، 1425هـ/2004م دار الأخيار، السعودية، (ص:374)

⁽³¹⁾ رسالة إلى أهل الثغر للإمام أبي الحسن الأشعري، ت: عبد الله شاکر محمد الجندي، مكتبة العلوم والحكم، دمشق، ط1، 1988، (ص: 274).

⁽³²⁾ صحيح البخاري مع الفتح، (379/1)، ح92.

فهم إذن أهل الجماعة القائمون بالحق، والله تعالى يحفظ الحق وأهله، فلا يقعون في تناؤدٍ وتناقض، وليس فريق من فرق المخالفين إلا وفيهم تكفير بعضهم لبعض وتبري بعضهم من بعض؛ كالخوارج والروافض والقدرية؛ حتى اجتمع سبعة منهم في مجلس واحد فافترقوا عن تكفير بعضهم بعضاً»⁽³³⁾.

وقال الإمام أبو الحسن الأشعري لأحد جلسائه حين يحتضر: «أشهد على أي لا أكفر أحدا من أهل هذه القبلة، لأن الكل يشيرون إلى معبود واحد، وإنما هذا كله اختلاف العبارات»⁽³⁴⁾. ويضيف محمد رشيد رضا إلى أن «بدعة التكفير قد أحدثها غلاة المبتدعة بتكفيرهم من يخالف بدعتهم وأن مما امتاز به أهل السنة عدم تكفير أحد من أهل القبلة، وقد اشتهر أن العمدة عندهم في التكفير هو جحود شيء مجمع عليه معلوم من الدين بالضرورة ممن نشأ بين المسلمين ولم يكن حديث عهد بالإسلام، أي يحجده عالماً به أو جاهلاً غير معذور بجهله، واشتروا أيضاً أن يكون غير متأول، فإن من جحد ذلك الشيء بتأويل ظهر له لا يكون كافراً...»⁽³⁵⁾.

وقرر الشيخ الخديم المسألة في قوله:

وَكُلُّ مَنْ أَنْكَرَ شَيْئًا قَدْ ثَبَتَ مِنَ الضَّرُورَةِ الَّتِي قَدْ عَلِمَتْ
فَكَاثِرٌ، أَمَا الَّتِي لَمْ تُعْلَمَ ضَرُورَةٌ فَمَنْ لِنُكْرِهِا انْتَمَى
فَلَيْسَ بِالْكَافِرِ بَلْ يُعَلَّمُ هَذَا الَّذِي نَقَلَهُ مَنْ عَلِمُوا⁽³⁶⁾
وقال أيضاً:

⁽³³⁾ الفرق بين الفرق، الإمام عبد القاهر البغدادي (ت429هـ) تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة دار التراث - القاهرة، طبعة 2007. (ص: 365-366).

⁽³⁴⁾ تبين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام الأشعري، لابن عساكر الدمشقي، (ص: 149).

⁽³⁵⁾ مجلة المنار، للشيخ محمد رشيد رضا، المكتبة الشاملة (260/4).

⁽³⁶⁾ منظومة تزود الشبان، ضمن ديوان العلوم الدينية، (ص: 543).

وَحَرِّمُوا تَكْفِيرَ ذِي اسْتِغْبَالٍ لِلذَّنْبِ فَالْعُفْرَانُ ذُو اسْتِغْبَالٍ⁽³⁷⁾

ومن اللطائف أن أبا زيد عبد الرحمن الأخصري ذكر في مختصره المشهور في الفقه المالكي أن من يصلي بلا طهارة كافر، وقال: «وَمَنْ صَلَّى بِغَيْرِ وُضُوءٍ عَامِدًا فَهُوَ كَافِرٌ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ» (ص:6)، لكن الشيخ - رحمه الله تعالى - في نظمه للمختصر حكمه بفسقه وقال:

وَمَنْ بِلَا طَهْرٍ يُصَلِّي أَبَدًا بِلَا ضَرُورَةٍ فَذُو فَسَقٍ بَدَا⁽³⁸⁾

9- فضل الصحابة وعدالتهم

فإذا كانت الشيعة الرافضة يكفرون أو يخطئون أكثر الصحابة وخصوصا كبارهم ويعتدونهم خائنين لأمانة الرسول صلى الله عليه وسلم وينصبون لهم العداء ويطعنون فيهم، فإن «أهل السنة اتفقوا على وجوب منع الطعن على أحد من الصحابة بسبب ما وقع لهم من حروب ولو عُرف المحق منهم؛ لأنهم لم يقاتلوا في تلك الحروب إلا عن اجتهاد وقد عفا الله عن المخطئ في الاجتهاد بل ثبت أنه يؤجر أجرا واحدا وأن المصيب يؤجر مرتين»⁽³⁹⁾.

وقد وردت في فضائل الصحابة وعدالتهم نصوص كثيرة؛ ومنها قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ...﴾ [الفتح:18]، وفي هذه الآية دليل على عدالتهم؛ لأن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين كما في قوله تعالى: ﴿إِنْ لَمْ يَرْضَ اللَّهُ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة:97] وقد رضي الله عن الصحابة الكرام.

⁽³⁷⁾ المغني، (ص:144).

⁽³⁸⁾ الجواهر النفيس، ضمن ديوان العلوم الدينية، (ص:269).

⁽³⁹⁾ فتح الباري، (34/13).

ومن النصوص قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ والمهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه... ﴿[التوبة: 101]﴾.

وقال الحافظ ابن كثير - رحمه الله - في تفسير الآية: «فقد أخبر الله العظيم أنه رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، فإيا ويل من أبغضهم أو سبهم، أو أبغض أو سب بعضهم ولا سيما سيد الصحابة بعد الرسول صلى الله عليه وسلم وخيرهم وأفضلهم أعني الصديق الأكبر والخليفة الأعظم أبا بكر بن أبي قحافة، فإن الطائفة المخدولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة، ويغضونهم ويسبونهم عياذا بالله من ذلك، وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة، وقلوبهم منكوسة، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن إذ يسبون من رضي الله عنهم؟! وأما أهل السنة فهم يترضون عمن رضي الله عنه ويسبون من سبه الله ورسوله، ويوالون من يوالي الله، ويعادون من يعادي الله، وهم متبعون لا مبتدعون ويقتدون ولا يبتدون، ولهذا هم حزب الله المفلحون وعباده المؤمنون» (40).

ومما ورد في فضلهم قول النبي ﷺ: «لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مدّ أحدكم ولا نصيفه» (41). ولا يجوز أن يذكر أحد من الصحابة إلا بالتي هي أحسن، ويجب الإمساك عما شجر ووقع بينهم من النزاع والقتال، خشية أن يُساء بهم الظن. و«سئل بعض الأفاضل عما جرى بين عليٍّ ومعاوية فقال للسائل: تلك دماء قد طهر الله منها أيدينا، فلا نلطّخ بها ألسنتنا» (42).

وقال الشيخ الخديم - رحمه الله -:

وَأَفْضَلُ الصَّحَابَةِ الْمُتَّبِعَةُ لِذِي الْمَازِيَا الْخُلَفَاءُ الْأَرْبَعَةُ

(40) تفسير ابن كثير، ط2، تحقيق: سامي محمد بن سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع ب. ت. (4/ 203)

(41) صحيح البخاري مع الفتح، (34/7).

(42) فتح المجيد، (ص: 113).

صَدِّقْهُمْ عَمْرُ ذُو النُّورَيْنِ زَوْجُ الْبَتُولِ مَنْ نَفَى الْعَارَيْنِ
وَوَجِبَ الْإِمْسَاكَ عَمَّا شَجَرَا بَيْنَ الَّذِينَ دَوَّخُوا مِنْ فَجَرَا
إِذْ كُلُّ وَاحِدٍ عَلَى حَقِّ الْيَقِينِ عَلَيْهِمْ رِضْوَانُ مُرْقِي الْمُتَّقِينَ
وَأَذْكَرُ جَمِيعَهُمْ بِخَيْرِ الذِّكْرِ وَلَا تَكُنْ فِي أَبَدٍ ذَا نُكْرٍ⁽⁴³⁾

وقد كان الشيخ الخديم رضي الله عنه يكنّ للصحابه الكرام محبة صادقة وخالصة
لوجه الله تعالى؛ لأن حب النبي صلى الله عليه وسلم- يستلزم محبة صحابته الكرام
الذين آووه ونصروه. وقد عبر عن محبته لهم في ثنايا قصائده والتنويه بمزاياهم ومناقبهم،
ومن ذلك قوله:

أَحَبُّي الدَّارَيْنِ صَحْبُ نَفَى يَحْمِ إِلَهِي لِعَيْرِي كُلِّ مَنْ لَيْسَ يَبْرَأُ⁽⁴⁴⁾
وقوله

أَصْحَبَ رَسُولِ اللَّهِ إِيَّيْ خَدِيمُهُ مُحِبًّا لَكُمْ فِي اللَّهِ، وَاللَّهُ يَكْفُلُ⁽⁴⁵⁾
وقوله:

أُسُودٌ عَلَى الْأَعْدَا مَصَابِيحُ فِي الدَّجَى وَكُلُّ شُجَاعٍ رَأْسٌ ذِي الْكُفْرِ يَجْزَأُ
أُسُودٌ مَتَى يَقْصِدُ هُمْ ذُو تَجَرُّأٍ يَبُؤُ جُبًّا يَبْكِي وَيُمَحِّي التَّجَرُّأُ
أَيَا خَادِمِ الْمُخْتَارِ لَا تَنْسَ صَحْبَهُ فَمَنْ يَنْسَهُمْ فَالْمَدْحُ مَدْحٌ مُخْطَأُ

⁽⁴³⁾ المغني، (ص:155).

⁽⁴⁴⁾ من قصيدة «مقدمات الأمداح في مزايا المفتاح»، ضمن ديوان سعادات المريدين في أمداح خير المرسلين،
للشيخ الخديم، جمع وعناية الرابطة الخدمية للباحثين والدارسين، دار الأمان للنشر والتوزيع، المغرب، ط1،
1443هـ-2021م، (ص83-84).

⁽⁴⁵⁾ المرجع السابق.

خاتمة

- بعد هذه الدراسة للكتابات العقيدية للشيخ الخديم - رحمه الله تعالى - نود أن نسجل في الخاتمة النتائج التي توصلنا إليها ونلخصها فيما يلي:
- 1- لقد اكتشفنا من خلال هذا البحث ما كتبه الشيخ الخديم - رحمه الله تعالى - في التوحيد، وأنه قد جسّد فيه العقيدة الإسلامية الصحيحة - عقيدة أهل السنة والجماعة - على طريقة الأشاعرة في الاستدلال والبرهنة.
 - 2- أن هذه العقيدة تمتاز بالوسطية والاعتدال بين الفرق الأخرى حيث إنها تجمع بين العقل والنقل.
 - 3- أن الشيخ الخديم جمع في كتاباته هذه العقيدة وأحيائها، وحرّرها تحريراً بديعاً، وتصدى لصيانتها والدفاع عنها، ودعا الناس إلى اعتناقها والمحافظة عليها.
 - 4- أن علم التوحيد يحتل مكاناً واسعاً وحيزاً كبيراً في كتابات الشيخ الخديم - رحمه الله تعالى -، وذلك لأهمية العقيدة في الفرد المسلم، والله دره حين قال: «أَعْلَى الْمَقَامَاتِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى فِي هَذَا الزَّمَنِ إِسْكَانُ التَّوْحِيدِ فِي الْقُلُوبِ».
 - 5- أن الشيخ الخديم قد قرر مذهب أهل السنة والجماعة ومنهجهم في العقيدة تقريراً متميزاً في كتاباته، وخصوصاً في المسائل التي كثر فيها الخلاف بين الفرق الإسلامية.

المصادر والمراجع

- ابن أبي العز الحنفي، مقدمة شرح العقيدة الطحاوية، ت: أحمد محمد شاكر.
- ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم، تحقيق: محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ط 2، 1369هـ.
- ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، الناشر: دار المعرفة، بيروت، 1379.
- ابن خلف عليّ المصري، كفاية الطالب الرباني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني، مع حاشية العدوي، ط: 1، مطبعة المدني، مصر، 1407هـ/1987م.
- ابن رجب، جامع العلوم والحكم، ط 1، دار الأخيار، السعودية، 1425هـ/2004م.
- ابن عبد البر النمري، التمهيد، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري، الناشر: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، عام النشر: 1387 هـ.
- ابن عساكر الدمشقي، تبين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام الأشعري.
- ابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين، ت: محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1411هـ / 1991م.
- ابن كثير، تفسير ابن كثير، تحقيق: سامي محمد بن سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط 2، ب. ت.
- الأشعري أبو الحسن، الإبانة، تح: عباس صباغ، دار النفائس، الطبعة الأولى، 1414هـ/1994م.
- الأشعري أبو الحسن، رسالة إلى أهل الثغر، ت: عبد الله شاكر محمد الجندي، مكتبة العلوم والحكم، دمشق، ط 1، 1988.
- الباقلاني أبو بكر، الإنصاف، تقديم محمد زاهد بن الحسن الكوثري، عناية عزت العطار الحسيني، مكتب نشر الثقافة الإسلامية، طبعة: 1369هـ/1950م.
- البغدادي عبد القاهر، الفرق بين الفرق، (ت429هـ) تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة دار التراث - القاهرة، طبعة 2007.

- الشهرستاني، الملل والنحل، ت: محمد سيد كيلاي، دار المعرفة، بيروت 1404هـ.
- المعتق عواد، المعتزلة وأصولهم الخمسة وموقف أهل السنة منها، مكتبة الرشد، الرياض، ط2، 1413هـ/1995.
- اليدالي الديماني محمد سعيد، الذهب الإبريز في تفسير كتاب الله العزيز، تحقيق وتصحيح: الراحل بن أحمد سالم اليدالي، ط1، 2014.
- امباكي الشيخ الخديم، ديوان العلوم الدينية، جمع وعناية الرابطة الخدمية للباحثين والدارسين، دار الأمان للنشر والتوزيع، المغرب، ط2، 1441هـ-2020م.
- امباكي الشيخ الخديم، ديوان سعادات المريدين في أمداح خير المرسلين، جمع وعناية الرابطة الخدمية للباحثين والدارسين، دار الأمان للنشر والتوزيع، المغرب، ط1، 1443هـ/2021م.
- امباكي الشيخ الخديم، قصيدة «بشرى لنا قد أتانا الجود والكرم»، (مخطوطة).
- امباكي الشيخ الخديم، مسالك الجنان، دراسة وتحقيق: دائرة روض الرياحين، طوبى- السنغال، مطبعة المعارف الجديدة بالرباط- المغرب، الطبعة الأولى 1436هـ/2014م.
- امباكي شيخنا خديم، المغني في معاني فيض الغني المغني، ط1، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1439هـ/2018م.
- رضا محمد رشيد، مجلة المنار، المكتبة الشاملة.
- مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العرب، بيروت، ب. ت.
- وُلد إبراهيم الأمانة، فتح المجيد على نظم عبد الله بن الحاج أحماه الله الشنقيطي لرسالة بن أبي زيد القيرواني، ط 1، 1423هـ / 2002م، مطبعة المنار نواكشوط.